الباب الثاني

في المهدي الذي هو آدم الأُمّة وخَاتَم الأئمة

اعلموا أن الله الذي خلق الليل والنهار، وأبدأ الظلامات والأنوار، قد جرت عادته من قديم الزمان وأوائل الأزمنة والأوان، أنه لا يتوجّه إلى إصلاح إلا بعد رؤية كمال طلاح، وإذا بلغت الآفة مداها، وانتهت البلية إلى منتهاها، فتتوجه العناية الإلهية إلى إماطتها، وإلى خلق شيء يكون سببا لإزالتها. وأما مثله فيوجد في العالم الجسماني أمثلة واضحة ونظائر بيّنة جليّة للذي اعترته شبهة أو كان من الغافلين.

فأكبر الأمثلة سُنة ربانية توجد في نزول الأمطار والمرابيع التي تنـــزل لتنضير الزروع والأشجار، فإن المطر النافع لا ينـــزل إلا في أوقات الاضطرار، ويُعرف وقته عند شدة الحاجة وقرب الأخطار، فإذا الأرض يبست وهمدت، واصفر كل ما أنبتت وأخرجت، ومسّت الضرّاء أهلَها والمصائب نزلت وسقطت، وظن الناس أنهم أُهلكوا، والدواهي قربت ودنت، وما بقي في الأضَى قطرة ماء، والغدر نتنت، فيُغاثون الناسُ في هذا الوقت ويُحيي الله الأرض بعد موتها، وترى البلدة اهتزّت وربَتْ، وترى كل زرع أخرج الشطَأَ وكل الأرض اخضرّت ونضرت، وصار الناس بعد الخطرات آمنين.

وهذه عادة مستمرة، وسُنة قديمة، بل تزيد الشدّة في بعض الأوقات وتتجاوز حد المعمولات، وترى بلدة قد أمحلتْ ذاتَ العُوَيم، وما بقي من جَهام فضلا عن الغَيم، وما بقي بُلالة من الماء ولا عُلالة من ذخائر الشتاء، وما نزلت قطرة من قطر مع طول أمد الانتظار، ولاحت آثار قهر القهار، وأحال الخوف صُورَ الناس، وغلب الخيب وظهر طيران الحواس، وصار الريف كأرض ليس فيها غير الهباء والغبار، وما بقي ورق من الأشجار، فضلا عن الأثمار، فيضطر الناس أشد الاضطرار، وكادوا أن يهلكوا من آثار اليأس والتبار؛ فتتوجه إليهم العناية، ويدركهم رحم الله وتظهر الآية، وتنضر أرضهم من الأمطار، ووجوههم من كثرة الثمار، فيصبحون بفضل الله مخصبين. ذلك مثل الذين أتت عليهم أيام الضلال، وحلّت بهم أسباب مضلّة حتى زاغوا عن محجّة ذي الجلال، فأدركهم ذاتَ بكرة وابلٌ من مُزنِ رحمته، وبعث مجدد لإحياء الدّين، فأخذ الظانّون ظنّ السوء يعتذرون إلى الله ربّ العالمين.

وآخرون يكذّبونه ويقولون ما أنزل الله من شيء، وإن أنت إلا من المفترين. فينـــزل الوابل تترًا حتى لا يُبقي من سوء الظن أثرا، فيرجع الراجعون إلى الحق متندمين. وأمّا الأشقياء فما ينتفعون من وابل الله شيئا، بل يزيدون بغيا وظلما وعسفا، وكانوا قومًا ظالمين. وما اغترفوا من ماء الله وما شربوا، وما اغتسلوا وما توضأوا، وما كانوا أن يسقوا الحرث، وكانوا قوما محرومين، فما رأوا الحق لأنهم كانوا عمين، وإن في ذلك لآيات لقوم مفكّرين.

ومثل آخر لمرسل الخلاق وهو ليالي المحاق كما لا يخفى على الممعِن الرمّاق وعلى المتدبرين. فإنها ليال داجية الظلم، فاحمة اللمم، تأتي بعد الليالي المنيرة كالآفات الكبيرة، فإذا بلغ الظلام منتهاه، وما بقي في ليل سناه، فيعشو الله أن يزيل الظلام المركوم، ويبرز النير المغموم، فيبدأ الهلال ويملأ أمنًا ونورًا الليلَ المهال، وكذلك جرت سُنّته في أمور الدّين. فيا حسرة على أهل الشقاق، إنهم يحكمون بقرب الهلال عند مجيء ليالي المحاق، ويرقبونه كالمشتاق، ولكنهم لا ينتظرون في ظلام الدين هلالاً ولو بلغ الظلام كمالا. فالحق والحق أقول إنهم قوم حمقى، وما أُعطي لهم من المعقول حظ أدنى، وما كانوا مستبصرين.

هذا ما شهدتْ سُنّة الله الجارية لنوع الإنسان، وثبت أن الله يُري مسالك الخلاص بعد أنواع المصائب والذوبان. فلما كان من عادات ذي الجلال والإكرام أنه لا يترك عباده الضعفاء عند القحط العام في الآلام، ولا يريد أن ينفكّ نظامٌ يتبعه عطبُ الأجسام، فكيف يرضى بفكّ نظام فيه موت الأرواح ونار جهنم للدوام؟ ثم إذا نظرنا في القرآن فوجدناه مؤيدًا لهذا البيان، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾✪، وإن في ذلك لبشرى لكل من تزكّى، وإشارة إلى أن الناس إذا رأوا في زمان ضرًّا وضيرًا، فيرون في آخرَ نفعا وخيرا، ويرون رخاءً بعد بلاء في الدين والدنيا. وكذلك

✪ الانشراح: ٦-٧

قال في آية أُخرى لقوم يسترشدون: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾،* فأَمعنوا فيه إن كنتم تفكرون. فهذه إشارة إلى بعث مجدد في زمان مفسد كما يعلمه العاقلون. ولا معنى لحفاظة القرآن من غير حفاظة عطره عند شيوع نتن الطغيان، وإثباته في القلوب عند هبّ صراصر الطغيان، كما لا يخفى على ذوي العرفان والمتدبرين.

وإثبات القرآن في قلوب أهل الزمان لا يمكن إلا بتوسط رجل مُطهَّر من الأدناس، ومخصوص بتجديد الحواس، ومُنوَّر بنفخ الروح من رب الناس، فهو المهدي الذي يهدي من رب العالمين، ويأخذ العلم من لدنه ويدعو الناس إلى طعام فيه نجاة المدعوين. وإنما هو كإناء فيه أنواع غذاء، من لبن سائغٍ وشِواءٍ، أو هو كنار شتاءٍ، وللمقرور أشهى أشياء، أو كصحفة من الغَربِ فيها حلواء القند والضرب، فمن جاءه أكَل الخبيص، ومن أعرض فأُخذ ولا محيص، وسيلقى السعير ولو ألقى المعاذير. فثبت أن وجود المهديين عماد الدّين، وتنـــزل أنوارهم عند خروج الشياطين، وتحيطهم كثير من الزمر كهالات القمر. ولما كان أغلب أحوال المهديين أنهم لا يظهرون إلا عند غلبة الضالين والمضلين، فسُمّوا بذلك الاسم إشارة إلى أن الله ذا المجد والكرم طهّرهم من الذين فسقوا وكفروا، وأخرجهم بأيديه من الظلمات إلى النور، ومن الباطل إلى الحق الموفور، وجعلهم ورثاء علم النبوة وأعطاهم حظا منه، ودقّق مداركهم وعلّمهم من لدنه، وهداهم سبلا ما كان لهم أن يعرفوا،

* الحجر: ١٠

وأراهم طرقا ما كان لهم أن ينظروا لولا أن أراهم الله، ولذلك سُمّوا مهديين.

وأما المهدي الموعود الذي هو إمام آخر الزمان، ومنتظَر الظهور عند هبّ سموم الطغيان، فاعلم أن تحت لفظ المهدي إشارات لطيفة إلى زمان الضلالة لنوع الإنسان، وكأنّ الله أشار بلفظ المهدي المخصوص بالهداية إلى زمان لا تبقى فيه أنوار الإيمان، وتسقط القلوب على الدنيا الدنيّة ويتركون سبل الرحمن، وتأتي على الناس زمان الشرك والفسق والإباحة والافتتان، ولا تبقى بركة في سلاسل الإفادات والاستفادات، ويأخذ الناس يتحركون إلى الارتدادات والجهلات، ويزيد مرض الجهل والتعامي، مع شوقهم في سير المعامي والموامي، ويُعرضون عن الرشاد والسداد، ويركنون إلى الفسق والفساد، وتطير جراد الشقاوة على أشجار نوع الإنسان، فلا تبقى ثمر ولا لدونة الأغصان. وترى أن الزمان من الصلاح قد خلا، والإيمان والعمل أجفلا، وطريق الرشد عُلِّق بثريّا السماء. فيذكر الله مواعيده القديمة عند نزول الضرّاء، ويرى ضعف الدين ظاهرًا من كل الأنحاء، فيتوجّه ليُطفئ نار الفتنة الصمّاء، فيخلق رجلا كخلق آدم بيدَي الجلال والجمال، وينفخ فيه روح الهداية على وجه الكمال. فتارة يُسميه عيسى بما خلقه كخلق ابن مريم لإتمام الحجة على النصارى، وتارة يدعوه باسم مهدي أمين بما هو هُدِيَ من ربه للمسلمين الضالين، وأُخرجَ للمحجوبين منهم ليقودهم إلى رب العالمين. هذا هو الحق الذي فيه تمترون، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

أحيا عبدًا من عباده ليدعو الناس إلى طرق رشاده، فاقبلوا أو لا تقبلوا، إنه فعل ما كان فاعلا. أأنتم تضحكون ولا تبكون، وتنظرون ولا تبصرون.

أيها الناس لا تغلوا في أهوائكم، واتقوا الله الذي إليه تُرجعون. ما لكم لا تقبلون حكمَ الله وكنتم تنتظرون؟ شهدت السماء فلا تبالون، ونطقت الأرض فلا تفكّرون. وقالوا إنا لا نقبل إلا ما قرأنا في آثارنا ولو كانت آثارهم مبدَّلة أو وضعها الواضعون؟ أيها الناس انظروا ههنا وهُنا، فاتركوا الدَخَن واقبلوا ما بان ودنا، ولا تتبعوا الظنون أيّها المتقون. قد عدل الله بيننا فلا تعدلوا عن عدله، ولا تركنوا إلى الشقاء أيها المسلمون. يا ذراري الصالحين.. لا تكونوا في يدَي إبليس مرتهَنين، ما لكم لا تتطهرون. واعلموا أن لله تدلّيات ونفحات، فإذا جاء وقت التدلّي الأعظم فإذا الناس يستيقظون، وكلّ نفس تتنبّه عند ظهوره إلا الفاسقون. ولكلّ تَدَلٍّ عنوانٌ وشأنٌ يعرفه العارفون. وأعظم التدليات يأتي بعلوم مناسبة لأهل الزمان، ليطفئ نائرة أهل الطغيان، فينكرها الذين كانوا عاكفين على أصنامهم فيسبّون ويكفرون، ولا يعلمون أنها فايضة من السماء، وأنها شفاء للذين تَنفّروا من قول المخطئين الجاهلين وكانوا يتردّدون، فينـــزل الله لهم علومًا ومعارف تناسب مفاسد الوقت فهم بها يطمئنون، كأنها ثمر غضٌّ طريٌّ وعين جارية، فهم منه يأكلون ومنها يشربون.

فحاصل البيان أن المهدي الذي هو مجدد الصلاح عند طوفان الطلاح، ومبلِّغ أحكام ربّ الناس إلى حد الإبساس، سُمّي مهديًا موعودًا وإماما معهودًا وخليفة الله رب العالمين. والسر الكاشف في هذا الباب أن الله قد وعد في الكتاب أن في آخر الأيام تنـــزل مصائب على الإسلام، ويخرج قوم مفسدون ومن كل حدَبٍ ينسلون، فأشار في قوله ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾▣ أنهم يملكون كلَ خصب وجدب، ويحيطون على كل البلدان والديار، ويُفسدون فسادًا عاما في جميع الأقطار، وفي جميع قبائل الأخيار والأشرار، ويضلّون الناس بأنواع الحيل وغوائل الزخرفة، ويلوّثون عرض الإسلام بأصناف الافتراء والتهمة، ويظهر من كل طرف ظلمةٌ على ظلمة، ويكاد الإسلام أن يزهق بتبعة، ويزيد الضلال والزور والاحتيال، ويرحل الإيمان وتبقى الدعاوي والدلال، حتى يخفى على الناس الصراط المستقيم، ويشتبه عليهم المَهْيَع القديم. لا ينتهجون محجّة الاهتداء، وتزلّ أقدامهم وتغلب سلسلة الأهواء، ويكون المسلمون كثير التفرقة والعناد، ومنتشرين كانتشار الجراد، لا تبقى معهم أنوار الإيمان وآثار العرفان، بل أكثرهم ينخرطون في سلك البهائم أو الذياب أو الثعبان، ويكونون عن الدين غافلين. وكل ذلك يكون من أثر يأجوج ومأجوج، ويشابه الناس العضو المفلوج كأنهم كانوا ميتين.

▣ الأنبياء:٩٧

ففي تلك الأيام التي يموج فيها بحر الموت والضلال، ويسقط الناس على الدنيا الدنيّة ويعرضون عن الله ذي الجلال، يخلق الله عبدًا كخلقه آدم من كمال القدرة والربوبية، مِن غير وسائل التعاليم الظاهرية، ويُسمّيه آدم نظرا على هذه النسبة، فإن الله خلق آدم بيديه وعلّمه الأسماء كلها، ومنّ منًّا عظيمًا عليه وجعله مهديا، وجعله من المستبصرين.

وكذلك سماه عيسى ابن مريم بالتصريح بما كان خلقه وبعثه كمثل المسيح، وبما كان سِرّه كسرّه المستور، وكانا في علل الظهور من المتحدين. وتشابهت فتن زمنهما وصور إصلاحهما، وتشابهت قلوب أعداء الدين. فالعلامة العظمى لزمان المهدي ظلمة عظيمة من فتن قوم يأجوج ومأجوج إذا علوا في الأرض وأكملوا العروج، وكانوا من كل حدب ناسلين[٥]. وفي اسم المهدي إشارات إلى هذه الفتن لقوم متفكرين. فإن اسم المهدي يدل على أن الرجل المسمى به أُخرج من قوم ضالين، وأدركه هُدى الله ونجاه من قوم فاسقين. فلا شك أن هذا الاسم يدل على مفاسد الزمان بمُجمَلٍ مَطْويٍّ من البيان، ويذكر من زمن الظلمات ووقت الظلامات وأوان نزول الآفات، ويشير إلى شوائب الدهر ونوائبه، وغرائب القادر وعجائبه من تأييد المستضعفين. ويدل بدلالة قطعية على أن المهدي لا يظهر

---

[٥] **الحاشية**: هذه هي العلامة القطعية لآخر الزمان وقرب القيامة كما جاء في مسلم من خير البرية. قال قال رسول الله ﷺ: تقوم القيامة والرومُ أكثر من سائر الناس. وأراد من الروم النصارى كما هو مُسلَّم عند ذوي الأدراس والأكياس والمحدّثين. منه

إلا عند ظهور الفتن المبيدة والظلمات الشديدة، فإذا كثر الضلال وزاد اللدد والجدال، وعدم العمل الصالح وبقي القيل والقال، فيقتضي هذا الحال أن يهدي رجلا الربُّ الفعّال، وتتضرع الظلمة في الحضرة لينـــزل نورٌ لتنوير المحجّة، فتنـــزل الملائكة والروح في هذه الليلة الحالكة بإذن رب ذي القدرة الكاملة، فيُجعَلُ رجل مهديا ويُلقَى الروح عليه، ويُنوَّر قلبه وعينيه، ويُعطَى له السؤدد والمكرمة موهبة، ويُجعَل له التقوى حلية، ويُدخَل في عباد الله المنصورين. فإن البغي إذا بلغ إلى انتهاء، فهذا هو يومُ حكم وقضاء، وفصل وإمضاء، وعون وإعطاء، ولو لا دفعُ الله الطلاحَ بأهل الصلاح لفسدت الأرض ولسُدّت أبواب الفلاح ولهلك الناس كلهم أجمعين. فلأجل ذلك جرت سُنة الله أنه لا يُظهِر ليلة ليلاء إلا ويُري بعدها قمراء، وإنه جعل مع كل عسرٍ يُسرا، ومع كل ظلام نورا. ففكر في هذا النظام ليظهر عليك حقيقة المرام، وإن في ذلك لآيات للمتوسمين.

واعلم أن ظلمة هذا الزمان قد فاقت كل ظلمة بأنواع الطغيان، وطلعت علينا آثار مُخوفة وفتن مذيبة الجَنان، والكفار نسلوا من كل حدب كالسِّرحان ناهبين. فحان أن يُعان المسلمون ويُقوَّى المستضعفون، ويوهَن كيد الدجّالين. ألم تمتلئ الأرض ظلاما، وسفهت النفوس أحلاما، ونَحَت الناس أصناما، وغلب الكفر وحاق به الظفر وقلّ التخفّر، فزخرفوا الزور الكبير وزيّنوا الدقارير، وصالوا بكل ما كان عندهم من لطم، وما بقي على كيد من ختم، واتفق

كل أهل الطلاح، وصاروا كالماء والراح، وطفق زمر الجهال يتبعون آثار الدجال، ومن يقبل مشرب هذيانهم يكون خالصةَ خُلصانهم. ووالله إن خباثتهم شديدة، وأما حلمهم فمكيدة، بل هو أحبولة من حبائل ختلهم، ورَسَنٌ استمر من فتلهم، وستعرفون دجاليّتهم متلهّفين.

وإنهم قوم تفور المكائد من لسانهم وعينيهم وأنفهم وأُذنيهم، ويديهم وأصدريهم ورجليهم ومِذروَيهم، وأرى كل مضغة من أعضائهم واثبة كالماكرين. فسد الزمان وعمّ الفسق والعدوان وتنصرت الديار والبلدان؛ فالله المستعان. والناس يُدلجون في الليلة الليلاء ويعرضون عن الشمس والضياء، ويضيعون الإيمان للأهواء متعمدين. وأرى القسيسين كالذي أكثبَه قنصٌ، أو بدت له فرصٌ، وأجدهم بأنواع حيل قانصين.

ومن مكائدهم أنّهم يأسُون جراح الموهوص، ويريشون جناح المقصوص، لعلهم يُسخّرون قوما طامعين. يُرغّبون ضُلًّا بنَ ضُلٍّ، ويفرِضون له مِن كلِّ كثيرٍ وقُلٍّ، لعلهم يحبسونه بغُلٍّ، ثم يُسقطونه في هوّة الهالكين. يُبادرون إلى جبر الكسير وفكّ الأسير ومواساة الفقير، بشرط أن يدخل في دينهم الذي هو وقود السعير، ويرغّبوهم إلى بناتهم وأنواع لذاتهم ليغترّ الخَلق بجهلاتهم ويجعلوهم كأنفسهم مفسدين. فالناس لا يرجعون إليهم بأناجيل متلوّة، بل بخطبة مجلوّة أو بمال مجّان كالناهبين. ولا يتنصرون لأعتاب الرؤوف البَرّ، بل يهرولون لاحتلاب الدرّ لكي يكونوا متنعمين. وكذلك أشاعوا

الضلالات ومدّوا أطنابها، وفتحوا من كل جهة بابها، وأعدّوا شهوات الأجوفَين ودعوا طُلابها، فإذا يُسِّرَ لأحد منهم العقد، أو أُعطِيَ له النقد، وآمَنوه من عيشٍ أنكَد، فكأَنْ قَدْ. وكذلك كانت فخُّ سِيَرهم، وشِباكُ حِيَلهم، ولأجلها اصطفّ لديهم زُمر من الكسالى، لا يعلمون إلا الأكل والشرب والدلال، ولا يوجد صغوُهم إلا إلى شرب المدام أو إلى الغِيد وأطايب الطعام، فيعيشون قرير العين بوصال العِين ووصول العَين. وكذلك لا يألو القسيسون جُهدًا في إضلال العوام، ويُنعمون على الذين هم كالأنعام، وينفُضون عليهم أياديَ الإنعام، ويوطنونهم أمنع مقام من الإكرام، وتراهم مكبّين على الحطام، كأنهم هُنَيدة من راغية، أو ثُلّة من ثاغية. فهؤلاء هم الدجال المعهود، فليَسْرِ عنك إنكارك المردود. وإن هذه الأيام أيام اقتحام الظلام، وأظلال خيام يوم القيام، وإنا اغتمدنا الليل واقتحمنا السيل مختبطين. وفي منازلنا طرق يضلّ بها خفير، ويحار فيها نحرير، وخوّفَنا يومنا الصعب الشديد، ورأينا ما كنا منه نحيد، وليس لنا ما يشجّع القلب المزءود، ويحدو النِضْوَ المجهود إلا ربنا رب العالمين.

والناس قد استشرفوا تلفًا وامتلأوا حَزَنًا وأسفًا، ونسوا كل رزء سلَفَ وكل بلاء زلَفَ، ويستنشئون ريح مُغيث ولا يجدون من غير نتن خبيث، فهل بعد هذا الشر شر أكبر منه يُقال له الدجال؟ وقد انكشف الآثار وتبينت الأهوال، ورأينا حمارًا يجوبون عليه البلدان، فيطِسّ بأخفافه الظرّانَ، ويجعل سَنَةً كشهر عند ذوي العينين، ويجعل

شهرا كيوم أو يومين، ويعجب المسافرين. إنه مركبٌ جوّاب لا تواهقه رِكاب، ولا ثنية ولا ناب، والسبل له جُدّدت، والأزمنة بظهوره اقتربت، والعِشار عُطّلت، والصحف نُشرت،* والجبال

* اعلم أن القرآن مملوٌّ من الأنباء المستقبلة والواقعات العظيمة الآتية، ويقتاد الناس إلى السكينة واليقين، وعِشاره تخور لحمل السالكين في كل زمان، وأعشاره تفور لتغذية الجائعين في كلّ أوان، وهو شجرة طيبة يؤتي أكله كل حين، وذُلّلت قطوفه في كل وقت للمجتنين. فما من زمن ما له من ثمر، ولا تعطل شجرته كشجرة عنبٍ وتمرٍ، بل يُرِي ثمراته في كل أمر، ويُطعم مستطعمين. ومن أعظم معجزاته أنه لا يغادر واقعة من الواقعات التي كانت مفيدة للناس أو مُضرّة، ولكن كانت من المعظمات، كما قال ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ◈، وفي هذا إشارة من رب عليم إلى أن كل ما يُفرَق في ليلة القدر من أمرٍ ذي بال، فهو مكتوب في القرآن كتاب الله ذي كل عظمة وجلال، فإنه نزل في ليلة القدر بنـــزول تام، فبورك منه الليل بإذن رب علام؛ فكل ما يوجد من العجائب في هذه الليلة يوجد من بركات نزول هذه الصحف المباركة؛ فالقرآن أحق وأولى بهذه الصفات، فإنه مبدأٌ أوّلُ لهذه البركات، وما بوركت الليلة إلا به من ربّ الكائنات، ولأجل ذلك يصف القرآن نفسه بأوصاف توجد في ليلة القدر، بل الليلة كالهلال وهو كالبدر، وذلك مقام الشكر والفخر للمسلمين.

وإني نظرت مرارا فوجدتُ القرآن بحرا زخّارًا، وقد عظّمه الله أنواعا وأطوارًا، فما للمخالفين لا يرجون له وقارًا، وأنكروا عظمته إنكارا؟ ويتكئون على أحاديث ما طهِّر وجهها حق التطهير، ويتركون الحق الخالص للدقارير، ولا يخافون ربّ العالمين. وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب سواء بيننا وبينكم لتخلصوا من الظلام وتُفتَح أعينكم، قالوا كفى لنا ما سمعنا من آبائنا الأوّلين. أوَلو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا من حقائق الدين؟ وإني فكرتُ حق الفكر، فوجدتُ فيه كل أنواع الذكر، وما من رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ومن أنبائه أنه أخبر عن نشر الصحف في آخر الزمان، وكذلك ظهر الأمر في هذا الأوان، وقد بدت في هذا الزمن كتب مفقودة بل موؤودة حتى إن كثرتها

دُكّت، والبحار فُجّرت، والنفوس زُوّجت، وجُعلت الأرض كأنها مطويّة ومزلف طرفيها، وتُركت القِلاص فلا يُسعى عليها. وليس هذا محلّ إلباس، بل أرصده الله لخَير الناس، ولو كان من صنع الدجّالين. فهذه المراكب جارية مذ مُدّة، وليست سواها قعدة، وفيها آيات للمتفطنين.

تعجب الناظرين. وظهرت كل وسائل الإشاعة والكتابة، ولا بد من أن نقبل هذا الأمر من غير الاسترابة، وإن كنتَ في شك من هذا فأْت نظيره من زمن الأولين.

ومن أنباء العليم القهار أنه أخبر من تعطيل العِشار وتفجير البحار وتزويج الديار، فظهر كما أخبر، فتبارك عالم غيوب السماوات والأرضين. وأخبر عن قوم ذوي خصب ينسلون من كل حدَب ويعلُون علوًّا كبيرًا، ويُفسدون في الأرض فسادًا مبيرًا، فرأينا تلك القوم بأعيننا ورأينا غلوَّهم وغلبتهم بلغت مشارق الأرض ومغاربها. تكاد السماوات يتفطرن من مفاسدهم، يلبسون الحق بالباطل وكانوا قومًا دجّالين. اتخذوا الحلم والإطماع والتحريف المنّاع شبكَةَ الإضلال، وأهلكوا خلقا كثيرا من هذا التثليث كالمغتال، وكل من يقصد منهم طُرق الغول الخبيث فلا بدّ له من هذا التثليث. فيُهلكون بعض الناس بالحلم المبني على الاختداع بأنواع الأطماع، وبعضًا آخر بظلام التحريف الذي هو عدو الشعاع، وكذلك يُضلّون الخلق متعمدين. وما نفَعهم حديثُ الأب والابن وروح القدس، وإن هو إلا الحديث، ولكن نفعهم هذا التثليث ففازوا بمطالب الخبث والرجس، فعجبتُ لهم كيف أُيِّدوا من روح القدس، ونسلوا من كل حدب فرحين. ولكل أمر أجل، فإذا جاء الأجل فلا ينفع الكائدين كيدهم ولا يطيقون قِبَل الصادقين. منه

==========

◈ *الدخان: ٥*

فثبت من هذا البيان أن هذا هو وقت ظهور المهدي ومسيح الزمان، فإن الضلالة قد عمّت، والأرض فسدت، وأنواع الفتن ظهرت، وكثرت غوائل المفسدين. وكل ما ذُكر في القرآن من علامات آخر الزمان فقد بدت كلها للناظرين.

والذين يرقبون ظهور المهدي من ديار العرب، أو من بلدة من بلاد الغرب، فقد أخطأوا خطأ كبيرًا وما كانوا مُصيبين. فإن بلاد العرب بلاد حفظها الله من الشرور والفتن ومفاسد كفار الزمن، ولا يُتوَقَّع ظهور الهادي إلا في بلاد كثرت فيها طوفان الضلال، وكذلك جرت سُنة الله ذي الجلال. وإنا نرى أن أرض الهند مخصوصة بأنواع الفساد، وفُتحت فيها أبواب الارتداد، وكثر فيها كل فسق وفجور، وظلم وزور، فلا شك أنها محتاجة بأشدّ الحاجة إلى نصرة الله ذي العزة والقدرة، ومجيءِ مهديٍّ من حضرة العزّة. ووالله لا نرى نظير فساد الهند في ديار أُخرى، ولا فتنًا كفتن هذه النصارى. وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن الدجال يخرج من الديار المشرقية، والقرآن يشير إلى ذلك بالقرائن البينة، فوجب أن نحكم بحسب هذه العلامات الثابتة البديهة، ولا نتوجه إلى إنكار المنكرين.

والذين يرقبون المهدي في مكة أو المدينة فقد وقعوا في الضلالة الصريحة. وكيف، واللهُ كفل صيانة تلك البقاع المباركة بالفضل الخاص والرحمة، ولا يدخل رعب الدجال فيها، ولا يجد أهلها ريح هذه الفتنة. فالبلاد التي يخرج فيها الدجال أحق وأولى بأن يرحم

أهلَها الربُّ الفعال، ويبعث فيهم من كان نازلا بالأنوار السماوية كما خرج الدجال بالقوى الأرضية كالشياطين.

وأما ما قيل أن المهدي مُختفٍ في الغار فهذا قول لا أصل له عند ذوي الأبصار، وهو كمثل قولهم أن عيسى لم يمت بل رُفع بجسمه إلى السماء، وينـــزل عند خروج الدجال والفتنة الصمّاء، مع أن القرآن يُخبر عن وفاته ببيان صريح مبين. فالحق أن عيسى والإمام محمد أطرحا عنهما جلابيب أبدانهما وتوفاهما ربّهما وألحقَهما بالصّالحين، وما جعل الله لعبد خُلدًا، وكل كانوا من الفانين. ولا تعجَب من أخبار ذُكر فيها قصة حياة المسيح، ولا تلتفت إلى أقوال فيها ذكر حياة الإمام ولو بالتصريح، وإنها استعارات وفيها إشارات للمتوسّمين.

والبيان الكاشف لهذه الأسرار، والكلام الكامل الذي هو رافع الأستار، أن لله عادة قديمة وسُنّة مستمرة أنه قد يُسمّي الموتى الصالحين أحياء، ليفهِّم به أعداءً أو يبشِّر به أصدقاءً، أو يُكرم به بعض عباده المتقين، كما قال ﷻ في الشهداء: لا تحسبوهم أمواتا بل أحياء، ففي هذا إيماء إلى أن الكافرين كانوا يفرحون بقتل المؤمنين وكانوا يقولون إنّا قتلناهم وإنا من الغالبين. وكذلك كان بعض المسلمين محزونين بموت إخوانهم وخلانهم وآبائهم وأبنائهم مع أنهم قُتلوا في سبيل ربّ العالمين، فسكّت الله الكافرين المخذولين بذكر حياة الشهداء، وبشّر المؤمنين المحزونين أن أقاربهم من الأحياء وأنهم لم يموتوا وليسوا بميتين. وما ذكر في كتابه المبين أن الحياة حياة

روحاني وليس كحياة أهل الأرضين، بل أكد الحياة المظنون بقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[◎]، وردَّ على المنكرين.

فكيف تعجب من قول: لم يمت عيسى، وقد جاء مثل هذا القول لقوم لحقوا بالموتى وماتوا بالاتفاق، وقُتلوا بالإهرياق، ودُفنوا باليقين. أما يكفي لك حياة الشهداء بنص كتاب حضرة الكبرياء مع صحة واقعة الموت بغير التماري والامتراء، فأيّ فضل وخصوصية لحياة عيسى مع أن القرآن يسمّيه المتوفَّى، فتدبَّرْ فإنك تُسأل عن كلّ خيانة ونفاق في يوم الدين. يومئذ يتندّم المبطِل على ما أصرّ، وعلى ما أعرض عنه وفرّ، ولكن لا ينفع الندم إذ الوقت مضى ومرّ، وكذلك تطلع نار الله على أفئدة الكاذبين. فويل للمزورين الذين لا ينتهون عن تَزيُّدِهم بل يزيدون كل يوم وكل حين. وكفى لخيانتك أن تتبع بغير تحقيق كل قول رقيق بلغ آذانك، وما تطهِّر من الجهلات جنانك، وتسقط على كل خضراء الدِمَن، كأهل الأهواء ومُحبّي الفتن، ولا تفتّش الطيب كالطيبين.

وقد علمت أن إطلاق لفظ الأحياء على الأموات وإطلاق لفظ الحياة على الممات ثابت من النصوص القرآنية والمحكمات الفرقانية، كما لا يخفى على المستطلعين الذين يتلون القرآن متدبّرين، ويصكّون أبوابه مستفتحين. فينير عليك مِن هذه الحقيقة الغرّاء الليلُ

◎ آل عمران: ١٧٠

الذي اكفهرَّ على بعض العلماء حتى انثنوا مُحْقَوقفين بعدما كانوا مستقيمين.

ولعلّك تقول بعد هذا البيان إني فهمتُ حقيقة الحياة كأهل العرفان، ولكن ما معنى النـــزول على وجه المعقول وعلى نهجٍ يُطَمْئِنُ قلوبَ الطالبين. فاعلم أنه لفظ قد كثر استعماله في القرآن، وأشار الله الحميد في مقامات شتى من الفرقان أن كل حبْرٍ وسِبْرٍ ينـــزل من السماء، وما من شيء إلا ينال كمالَه من العُلَى بإذن حضرة الكبرياء، وتلتقط الأرض ما تنفض السماوات، ويصبّغ القرائح بتصبيغٍ من الفوق، فتُجعَل نفسٌ سعيدًا أو من الأشقياء والمبعدين. فالذين سُعدوا أو شقوا يُشابه بعضهم بعضا، فيزيدون تشابهًا يومًا فيومًا، حتى يُظَنّ أنهم شيء واحد، كذلك جرت سُنة أحسن الخالقين. وإليه يشير ﷻ بقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾◉، فليتفكر من أُعطى قوى المتفكرين.

وقد يزيد على هذا التشابه شيء آخر بإذن الله الذي هو أكبر وأقدر، وهو أنه قد يفسُد أُمّة نبيٍّ غاية الفساد، ويفتحون على أنفسهم أبواب الارتداد، وتقتضي مصالح الله وحِكمه أن لا يعذّبهم ولا يُهلكهم بل يدعو إلى الحق ويرحم وهو أرحم الرّاحمين. فيفتح الله عينَ نبيٍّ متوفّى كان أُرسِلَ إلى تلك القوم، فيصرف نظره إليهم كأنه استيقظ من النوم، ويجد فيهم ظلما وفسادا كبيرًا، وغُلوّا

◉ البقرة: ١١٩

وضلالا مُبيرًا، ويرى قلوبهم قد مُلِئَت ظلما وزورًا وفتنا وشرورًا، فيضجَر قلبه، وتقلق مهجته، وتضطرّ روحه وقريحته، ويعشو أن ينـــزل ويُصلح قومه ويُفحمهم دليلا، فلا يجد إليه سبيلا، فيُدركه تدبير الحق ويجعله من الفائزين. ويخلق الله مثيلا له يشابه قلبُه قلبَه، وجوهرُه جوهرَه، ويُنـــزِل إراداتِ الممثَّل به على المثيل، فيفرح الممثل به بتيسُّر هذا السبيل، ويحسب نفسه من النازلين، ويتيقن بتيقن تام قطعي أنه نزل بقومه، وفاز برَوْمه، فلا يبقى له همٌّ بعده ويكون من المستبشرين.

فهذا هو سرُّ نزول عيسى الذي هم فيه يختلفون. وختم الله على قلوبهم فلا يعرفون الأسرار ولا يسألون. ومن تجرّدَ عن وسخ التعصبات وصُبِّغَ بأنوار التحقيقات، فلا يبقى له شك في هذه النكات، ولا يكون من المرتابين. تلك قوم قد خلوا وذهبوا ورحلوا، فلا يرجعون إلى الدنيا ولا يذوقون موتَين إلا موتتهم الأولى، وتجد السُنة والكتاب شاهدَين على هذا البيان، ولكن بشرط التحقيق والإمعان وإمحاض النظر كالمنصفين.

وقد جاء في بعض الآثار من نبي الله المختار أنه قال: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا مني أو مِن أهل بيتي، يواطئ اسمُه اسمي واسمُ أبيه اسمَ أبي". أخرجه أبو داود الذي كان من أئمة المحدثين. فقوله "مني" و "يواطئ اسمه اسمي" إشارة لطيفة إلى بياننا المذكور، ففكِّرْ كطالب النور ،إن كنتَ تريد

أن تنكشف عليك حقيقة السر المستور، فلا تمرّ غاضَّ البصر كالظالمين.

واعلم أن المراد من مواطأة الاسمين مواطأة روحانية لا جسمانية فانية، فإن لكل رجل اسم في حضرة الكبرياء، ولا يموت حتى ينكشف سرّ اسمه سعيدًا كان أو من الأشقياء والضالين. وقد يتفق توارُدُ أسماء الظاهر كما في "أحمد" و"أحمد"، ولكن الأمر الذي وجَدْنا أحقّ وأنشد، فهو أن الاتحاد اتحاد روحاني في حقيقة الاسمين، كما لا يخفى على عارفٍ ذي العينين. وقد كان من هذا القبيل ما أُلهمتُ من الرب الجليل وكتبتُه في كتابي "البراهين"، وهو أن ربي كلّمني وخاطبني وقال: "يَا أَحْمَدُ يَتِمُّ اسمُكَ، وَلا يَتِمُّ اسْمِي." فهذا هو الاسم الذي يُعطَى للروحانيين، وإليه إشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[◎].. أي علّمه حقائق الأشياء كلها، وجعله عالما مجملاً مثيل العالمين.

وأمّا توارد اسم الأبوين كما جاء في حديث نبيّ الثقلَين، فاعلم أنه إشارة لطيفة إلى تطابُق السرَّين من خاتم النبيين. فإن أبا نبينا ﷺ كان مستعدّا للأنوار فما اتفق حتى مضى من هذه الدار، وكان نورُ نبيّنا موّاجًا في فطرته، ولكن ما ظهر في صورته، والله أعلم بسرّ حقيقته، وقد مضى كالمستورين. وكذلك تشابهَ أبُ المهدي أبَ

[◎] *البقرة:* ٣٢

الرسول المقبول، ففكِّرْ كذوي العقول، ولا تمش معرضا كالمستعجلين.

وأظن أن بعض الأئمة من أهل بيت النبوة، قد أُلهمَ من حضرة العزة، أن الإمام محمدًا قد اختفى في الغار، وسوف يخرج في آخر الزمان لقتل الكفار، وإعلاءِ كلمة الملة والدين. فهذا الخيال يُشابه خيال صعود المسيح إلى السماء ونزوله عند تموُّج الفتن الصمّاء. والسرّ الذي يكشف الحقيقة ويبين الطريقة، هو أن هذه الكلمات ومثلها قد جرت على ألسنة الملهَمين بطريق الاستعارات، فهي مملوّة من لطائف الإشارات، فكأنّ القبر الذي هو بيت الأخيار بعد النقل من هذا الدار، عُبِّرَ منه بالغار وعُبِّرَ خروج المثيل المتحد طبعًا وجوهرًا بخروج الإمام من المغارة، وهذا كله على سبيل الاستعارة. وهذه المحاورات شائعة متعارفة في كلام رب العالمين، ولا يخفى على العارفين. ألا تعرف كيف أنّب الله يهود زمان خاتم النبيين، وخاطبهم وقال بقول صريح مبين: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِه وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ..... وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُم بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ

الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.○

هذا ما جاء في القرآن وتقرأونه في كتاب الله الفرقان، مع أن ظاهر صورة هذا البيان يُخالف أصل الواقعة، وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان. فإن الله ما فَرَقَ بيهودِ زمانِ نبيِّنا بحرًا من البحار، وما أغرق آل فرعون أمام أعين تلك الأشرار، وما كانوا موجودين عند تلك الأخطار، وما اتخذوا العجل وما كانوا في ذلك الوقت حاضرين، وما قالوا يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة بل ما كان لهم في زمان موسى أثرًا* وتذكرة، وكانوا معدومين. فكيف أخذهم الصاعقة، وكيف بُعثوا من بعد الموت وفارقوا الحِمام؟ وكيف ظلل الله عليهم الغمام؟ وكيف أكلوا المن والسلوى، ونجّاهم الله من البلوى، وما كانوا موجودين، بل وُلدُوا بعد قرون متطاولة وأزمنة بعيدة مبعدة، ولا تزر وازرة وزر أخرى، والله لا يأخذ رجلا مكان رجل وهو أعدل العادلين. فالسرّ فيه أن الله أقامهم مقام آبائهم لمناسبةٍ كانت في آرائهم، وسماهم بتسمية أسلافهم وجعلهم وُرثاء أوصافهم، وكذلك استمرت سُنة رب العالمين.

وإن كنت تزعم كالجهلة أن المراد من نزول عيسى نزولُ عيسى عليه السلام في الحقيقة فيعسُر عليك الأمر وتخطئ خطأً كبيرا في الطريقة، فإن تَوفِّي عيسى ثابت بنص القرآن، ومعنى التوفّي قد انكشف من

○ *البقرة: ٥١-٥٨*

* *سهو الناسخ، والصحيح: "أثر". (الناشر)*

تفسير نبي الإنس ونبي الجانّ، ولا مجال للتأويل في هذا البيان، فالنـــزول الذي ما فسّره خاتم النبيين بمعنى يفيد القطع واليقين بل جاء إطلاقه على معان مختلفة في القرآن وفي آثار فخر المرسلين، كيف يعارض لفظَ التوفّي الذي قد حصحص معناه وظهر بقول النبي وابن العباس أنه الإماتة وليس ما سواه؟ وما بقي في معناه شك ولا ريب للمؤمنين. وهل يستوي المتشابهات والبينات والمحكمات؟ كلا.. لا تستوي أبدا، ولا يتبع المتشابهات إلا الذي في قلبه مرض وليس من المطهّرين. فالتوفّي لفظ محكم قد صرح معناه وظهر أنه الإماتة لا سواه، والنـــزول لفظ متشابه ما توجّهَ إلى تفسيره خاتم الأنبياء، بل استعمله في المسافرين.

ومع ذلك إن كنتَ يصعب عليك ذكرُ مجدد آخر الزمان باسم عيسى في أحاديث نبي الإنس ونبي الجان ويغلب عليك الوهم عند تعميم المعنى، فاعلم أن اسم عيسى جاء في بعض الآثار بمعانٍ وسيعة عند العلماء الكبار، وكفاك حديث ذكَره البخاري في صحيحه مع تشريحه من العلامة الزمخشري وكمال تصريحه، وهو أن كل بني آدم يمسّه الشيطان يوم ولدتْه أُمُّه إلا مريم وابنها عيسى. وهذا يُخالف نصَّ القرآن: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾✪، وآيات أُخرى، فقال الزمخشري: إن المراد من عيسى وأُمِّه كلُّ رجل تقيّ

✪ الحجر: ٤٣

كان على صفتهما وكان من المتقين المتورعين. فانظر كيف سمّى كلَّ تقي عيسى، ثم انظر إلى إعراض المنكرين.

وإن قُلتَ أنّ الشهادة واحدة ولا بدّ أن تزيد عليه شاهدًا أو شاهدةً، فاسمعْ وما أخال أن تكون من السامعين. اقرأ كتاب "التيسير بشرح الجامع الصغير" للشيخ الإمام العامل والمحدث الفقيه الكامل عبد الرؤوف المناوي رحمه الله تعالى وغفر له المساوي وجعله من المرحومين. إنه ذكر هذا الحديث في الكتاب المذكور وقال: ما جاء في الحديث المزبور من ذكر عيسى وأُمّه "فالمراد: هما ومَن في معناهما". فانظر بإمعان العينين كيف صرح بتعميم هذين الاسمين، فما لك لا تقبل قول المحققين.

وقد سمعتَ أن الإمام مالكًا وابن قيم وابن تيمية والإمام البخاري وكثيرًا من أكابر الأئمة وفضلاء الأُمّة، كانوا مُقرّين بموت عيسى ومع ذلك كانوا يؤمنون بنـــزول عيسى الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، وما أنكر أحدٌ هذين الأمرين وما تكلم، وكانوا يُفوّضون التفاصيل إلى الله ربّ العالمين، وما كانوا في هذا مجادلين. ثم خلف من بعدهم خلفٌ وسوادٌ أقلَفُ وفيجٌ أعوجُ وأجوفُ، يجادلون بغير علم ويفرّقون، ولا يركنون إلى سِلم ويكفرون عباد الله المؤمنين.

فحاصل الكلام في هذا المقام أن الله كان يعلم بعلمه القديم أن في آخر الزمان يُعادي قوم النصارى صراط الدين القويم، ويصدّون عن سبل الرب الكريم، ويخرجون بإفك مبين. ومع ذلك كان يعلم أن في هذا الزمان يترك المسلمون نفائس تعليم الفرقان، ويتبعون

زخارف بدعات ما ثبتت من الفرقان، وينبذون أمورًا تُعين الدين وتحبّر حلل المؤمنين. وتسقطون* في هوة محدثات الأمور وأنواع الأهواء والشرور، ولا يبقى لهم صدق ولا ديانة ولا دين، فقدر فضلا ورحمة أن يرسل في هذا الزمان رجلاً يُصلح نوعَي أهل الطغيان، ويتم حجة الله على المبطلين. فاقتضى تدبيره الحق أن يجعل المرسَلَ سَمِيَّ عيسى لإصلاح المتنصرين، ويجعله سَمِيَّ أحمدَ ﷺ لتربية المسلمين، ويجعله حاذيًا حذوَهما وقافيًا خطوَهما، فسماه بالاسمين المذكورين، وسقاه من الراحَين، وجعله دافِعَ همِّ المؤمنين ورافِعَ فتن المسيحيين. فهو عند الله عيسى من جهة، وأحمدُ من جهة، فاترُكِ السبل الأخياف وتجنَّبِ الخلاف والاعتساف، واقبل الحق ولا تكن كالضنين. والنبي ﷺ كما وصفه بصفات المسيح حتى سماه عيسى، كذلك وصفه بصفات ذاته الشريف حتى سماه أحمد ومشابهًا بالمصطفى، فاعلم أن هذين الاسمين قد حصلا له باعتبار توجه▣ التام إلى الفرقتين، فسماه أهل السماء عيسى باعتبار توجُّهه وتألمه كمُواسي الأسارى إلى إصلاح فرق النصارى، وسمَّوه بأحمد باعتبار توجّهه إلى أُمّة النبي توجّهًا أشد وأزيد، وتألّمه من سوء اختلافهم وعيشهم أنكد. فاعلم أن عيسى الموعود أحمد، وأن أحمد الموعود عيسى، فلا تنبذ وراء ظهرك هذا السرّ الأجلى. ألا تنظر إلى المفاسد الداخلية وما نالنا من الأقوام النصرانية؟ ألست ترى أن قومنا

* هذا سهو الناسخ والصحيح "يسقطون". (الناشر)

▣ هذا سهو الناسخ والصحيح "توجُّهه". (الناشر)

قد أفسدوا طرق الصلاح والدين، واتبعوا أكثرهم سبل الشياطين، حتى صار علمهم كنار الحُباحب، وحبرهم كسراب السُباسِب، وصار تطبُّعُ الشرِّ طِباعًا، والتكَلّفُ له هوًى طباعًا، وأكبّوا على الدنيا متشاجرين؟

يأبر بعضهم بعضا كالعقارب ولو كان المظلوم من الأقارب، وما بقي فيهم صدق الحديث وإمحاض المصافات، وبدلّوا الحسنات بالسيئات. اشتغلوا في تطلُّب مثالب الإخوان ونسوا إصلاح ذات البين وحقوق أهل الإيمان، وصالوا على الإخوة كصول أهل العدوان. أدحضوا المودّات وأزالوا خلوص النيات، وأشاعوا فيهم الفسق والعدوان، واتبعوا العثرات والبهتان. زالت نفحات المحبة كل الزوال، وهبّت رياح النفاق والجدال. ما بقي سعة الصدر وصفاء الجنان، ودخلت كدوراتٌ في الإيمان، وتجاوزوا حدود التورع والتقاة، وتناسوا حقوق الإخوان والمؤمنين والمؤمنات. لا يتحامَون العقوق ولا يؤدّون الحقوق، وأكثرهم لا يعلمون إلا الفسق والنهات، وتغيَّرَ الزمان فلا ورع ولا تقوى ولا صوم ولا صلاة. قدّموا الدنيا على الآخرة، وقدّموا شهوات النفس على حضرة العزة، وأراهم لدنياهم كالمصاب، ولا يبالون طرق الآخرة ولا يقصدون طريق الصواب. ذهب الوفاء، وفُقد الحياء، ولا يعلمون ما الاتقاء. أرى وجوهًا تلمع فيهم أسرّة الغَدر، يحبّون الليلة الليلاء ويبزُقون على البدر. يقرأون القرآن، ويتركون الرحمان. لا يرى منهم جارُهم إلا الجَور، ولا شريكُ حدبهم إلا الغَور، يأكلون الضعفاء ويطلبون

الكَور. كثُر الكاذبون والنمّامون، والواشون والمغتابون، والظالمون المغتالون، والزانون الفاجرون، والشاربون المذنبون، والخائنون الغدّارون، والمايلون المرتشون. قست القلوب والسجايا، لا يخافون الله ولا يذكرون المنايا. يأكلون كما يأكل الأنعام، ولا يعلمون ما الإسلام. وغمرتهم شهوات الدنيا، فلها يتحركون ولها يسكنون، وفيها ينامون وفيها يستيقظون. وأهل الثراء منهم غريقون في النعم ويأكلون كالنَّعم، وأهل البلاء يبكون لفقد النعيم أو من ضغطة الغريم، فنشكو إلى الله الكريم، ولا حول ولا قوة إلا بالله النصير المعين.

وأما مفاسد النصارى فلا تُعدّ ولا تُحصى، وقد ذكرنا شطرا منها في أوراقنا الأولى. فلما رأى الله سبحانه أن المفاسد فارت من الخارج والداخل في هذا الزمان، اقتضت حكمته ورحمته أن يُصلح هذه المفاسد برجُل له قَدمان: قدمٌ على قدم عيسى، وقدم على قدم أحمد المصطفى. وكان هذا الرجل فانيا في القدمين حتى سُمّي بالاسمين. فخذوا هذه المعرفة الدقيقة، ولا تخالفوا الطريقة، ولا تكونوا أول المنكرين. وإن هذا هو الحق وربِّ الكعبة، وباطل ما يزعم أهل التشيع والسُنة. فلا تعجلوا عليّ، واطلبوا الهدى من حضرة العزة، وأْتوني طالبين. فإن تُعرضوا ولا تقبلوا، فتعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين.

وهذا هو الحق الذي كشف الله عليّ بفضله العظيم وفيضه القديم. وقد تُوفّي عيسى، والله يعلم أنه المتوفَّى. وتُوفِّي إمامكم محمد الذي ترقبونه، وقائمُ الوقتِ الذي تنتظرونه. وأُلهمتُ من ربي أني أنا المسيح الموعود وأحمد المسعود. أتعجبون ولا تفكّرون في سُنن الله، وتنكرون ولا تخافون؟ وحصحص الحق وأنتم تعرضون، وجاء الوقت وأنتم تبعدون. ومن سُنن الله القديم المستمرة الموجودة إلى هذا الزمان التي لم تنكرها* أحد من الجهلاء وذوي العرفان، أنه قد يذكر شيئًا أو رجُلا في أنبائه المستقبلة، ويريد منه شيئًا آخر أو رجُلا آخر في الإرادة الأزلية. وربما نرى في منام أن رجلا جاء من مقام، فلا يجيء مَن رأيناه بل يجيء مَن ضاهاه في بعض الصفات أو شابَهَه في الحسنات أو السيئات. وأقص عليك قصةً عجيبةً وحكايةً غريبةً: إن لي كان ابنا صغيرًا وكان اسمه بشيرًا، فتوفاه الله في أيام الرضاع، والله خير وأبقى للذين آثروا سبل التقوى والارتياع. فأُلهمتُ من ربي: إنا نردّه إليك تفضلاً عليك. وكذلك رأت أُمُّه في رؤياها أن البشير قد جاء، وقال إني أعانقك أشد المعانقة ولا أفارق بالسرعة. فأعطاني الله بعده ابنا آخر وهو خير المعطين. فعلمتُ أنه هو البشير وقد صدق الخبير، فسمّيته باسمه، وأرى حُلْية الأول في جسمه. فثبتت عادة الله برأي العَين، أنه قد يجعل شريكَ اسمٍ رجلَين. وأما

* *هذا سهو الناسخ والصحيح "ينكرها". (الناشر)*

جعلُ البعض سَمِيَّ بعضٍ فهي أسرار لتكميل غرض لا يعلمها إلا مُهجة العارفين.

ولي صديقٌ أحبُّ الأصدقاء وأصدق الأحبّاء، الفاضل العلامة والنحرير الفهّامة، عالمُ رموز الكتاب المبين، عارفُ علوم الحِكم والدّين، واسمه كصفاته المولوي الحكيم نور الدين. فاتفق في هذه الأيام من قضاء الله الحكيم العلام أن ابنه الصغير الأحد، الذي كان اسمه محمد أحمد، مات بمرض الحصبة، فصبر ووافق ربَّه ذا الحكمة والقدرة والرحمة، فرآه رجل في ليلة وفاته بعد مماته كأنه يقول لا تحزنوا لهذه الفرقة، فإني أذهب لبعض الضرورة، وسأرجع إليكم بقدم السرعة. وهذا يدل على أنه سيُعطى ابنا آخر، فيُضاهي الثاني الغابرَ. والله قادر على كل شيء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون شؤون أحسن الخالقين.

وكذلك في هذا الباب قصص كثيرة وشهادات كبيرة وقد تركناها خوفا من طول الكلام، وكثيرة منها مكتوبة في كتب تعبير المنام، فارجع إليها إن كنتَ من الشاكّين. وكيف تشكّ وإن الأخبار تواترت في هذا الباب؟ ولعلك تكون أيضًا من المشاهدين لهذا العجاب. فما ظنك.. أتعتقد أن رجلاً متوفّى إذا رآه أحد في المنام، أو أخبر عنه في الإلهام، وقال المتوفى إني سأرجع إلى الدنيا وأُلاقي القربى، فهل هو راجع على وجه الحقيقة.. أو لهذا القول تأويل عند أهل الطريقة؟ فإن كنتم مؤوِّلين في هذا المقام، فما لكم لا تؤوّلون

في أنباء تُشابهها بالوجه التام؟ أتُفرّقون بين سُنن الله يا معشر الغافلين؟ فتدبّرْ وما أخال أن تتدبّر إلا أن يشاء ربي هادي الضالين.

وقد عرفت أن علامات ظهور المسيح الذي هو المهدي قد ظهرت، والفتن كثرت وعمّت، والمفاسد غلبت وهاجت وماجت، ويسبّون خير البشر في السكك والأسواق، وماتت الملة والتفّت الساق بالساق، وجاء وقت الفراق، فارحموا الدين المُهان، فإنه يرحل الآن. ونشدتكم الله.. ألا ترون هذه المفاسد بالعين؟ ألا يُترك عينُ زلالِ الإيمان للعَين؟ اشهدوا لله اشهدوا.. أحقٌّ هذا أو من المَين؟ وما زاوَلْنا أشدَّ مِن كيد النصارى، وإنا في أيديهم كالأسارى. إذا أرادوا التلبيس، فيُخجلون إبليس. ظهر البأس، وحصحص اليأس. وقست قلوب الناس، واتبعوا وساوس الوسواس. وبعدوا عن التقوى، وخوف الله الأعلى، بل عادَوا هذا النمط، وضاهَوا السقط. وقلتُ قليلا مما رأيتُ وما استقصيت. ووالله إن المصائب بلغت منتهاها، وما بقي من الملة إلا رسمها ودعواها، وأحاطت الظلمات وعدم سناها، ووطِئ زروعَنا الأوابد، فما بقي ماؤها ومرعاها، وكاد الناس أن يهلكوا من سيل الفتن وطغواها، فأُعطيتُ سفينةً من ربي، وبسم الله مجريها ومرساها. وتفصيل ذلك أن الله وجد في هذا الزمان ضلالات النصارى مع أنواع الطغيان، ورأى أنهم ضلّوا وأضلّوا خلقا كثيرا، وعلَوا عُلوًّا كبيرا، وأكثروا الفساد، وأشاعوا الارتداد، وصالوا على الشريعة الغرّاء، وفتحوا أبواب المعاصي والأهواء، ففارت غيرة الله ذي الكبرياء عند هذه الفتنة الصمّاء. ومع

ذلك كانت فتنة داخلية في المسلمين، ومزّقوا باختلافاتٍ دينَ سيد المرسلين، وصال بعضهم على البعض كالمفسدين. فاختارني الله لرفع اختلافهم، وجعلني حَكَما قاضيا لإنصافهم. فأنا الإمام الآتي على قدم المصطفى للمؤمنين، وأنا المسيح متمم الحجة على النصارى والمتنصرين.

وجمع الله في وجودي الاسمَين كما اجتمعت في زماني نار الفتنتَين، وهذا هو الحق وبالذي خلَق الكونَين. فجئتُ لأشيع أنوار بركاته، واختارني ربي لميقاته. وما كنتُ أن أردّ فضل الله الكريم، وما كان لي أن أخالف مرضاة الرب الرحيم. وما أنا إلا كالميت في يدَي الغسّال، وأُقلَّبُ كلَّ طرفة بتقليب الفعّال، وجئتُ عند كثرة بدعات المسلمين ومفاسد المسيحيين. وإن كنتَ في شك فانظر بإمعان النظر كالمحقق الأريب، في فتنِ بدعاتِ قومنا وجهلاتِ عبَدة الصليب. أما ترى فتنًا متوالية؟ أسمعتَ نظيرها في قرون خالية؟ فما لك لا تفكّر كالعاقلين، ولا تنظر كالمنصفين؟ وإن الله يبعث على كل رأس مائة مجدّدَ الدّين، وكذلك جرت سُنة الله المعين. أتظن أنه ما أرسل عند هذا الطوفان رجلا من ذوي العرفان، ولا تخاف الله آخذَ المجرمين؟

قد انقضت على رأس المائة إحدى عشر سنة فما نظرتَ، وانكسفت الشمس والقمر فما فكرتَ، وظهرت الآيات فما تذكّرت، وتبينت الأمارات فما وقّرت، أأنت تنام أو كنتَ من المعرضين؟ أتقول لِمَ ما فعل الفعّال كما كنتُ أخال؟ وكذلك زعم

الذين خلوا من قبلك من اليهود، وما آمنوا بخير الرسل وحبيب رب* المعبود، وقالوا: يخرج منا خاتم الأنبياء الموعود، وكذلك كان وعد ربنا بداود، وقالوا: إن عيسى لا يأتي إلا بعد نزول إيليا من السماء. فكفروا بمحمد خير الرسل وعيسى الذي كان من الأنبياء، وختم الله على قلوبهم فما فهموا الحقيقة، وما كانوا متدبّرين. وقست قلوبهم ونحتوا الدقارير، حتى صاروا قردة وخنازير، وكذلك يكون مآل تكذيب الصادقين. وإنهم كانوا علماء أحزابهم وأئمة كلابهم، وكانوا فقهاء ومحدثين وفضلاء ومفسّرين، وكان أكثرهم من الراهبين. فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وما نفعهم علمُهم ولا نُخْرُوبُهم، وكانوا قوما فاسقين.

فلا تُفرِطوا بجنب الله وليكن فيكم رفق وحلم، ولا تقْفُوا ما ليس لكم به علم، ولا تغلُوا ولا تعتدوا، ولا تعثوا في الأرض ولا تفسدوا، واخشوا الله إن كنتم متقين. قد سمعتم سُنّة تسمية البعض بأسماء البعض، فلا تتركوا السُنن الثابتة من الله القدير، لأوهام ليس لها عندكم من برهان ونظير، وإن كنتم تُصرّون عليها ولا تُعرضون عنها فأنبئونا بنظائر على تلك السُنة إن كنتم صادقين. ولن تقدروا أن تأتوا بنظير، فلا تبرزوا لحرب الرب القدير، ولا تردّوا النعمة بعد نزولها، ولا تدُعّوا الفضل بعد حلولها، ولا تكونوا أوّل المعرضين.

* *هذا سهو الناسخ والصحيح "الرب". (الناشر)*

وإن كنتم في شك من أمري، ولا تنظرون نور قمري، وتزعمون أن المهدي الموعود والإمام المسعود يخرج من بني فاطمة لإطفاء فتن حاطمة، ولا يكون من قوم آخرين، فاعلموا أن هذا وهم لا أصل له، وسهم لا نصل له، وقد اختلف القوم فيه، كما لا يخفى على عارفيه، وعلى كمل المحدثين. وجاء في بعض الروايات أن المهدي صاحب الآيات من "وُلْد العبّاس"، وجاء في البعض "أنّه منّا" أي من خير الناس، وفي البعض أنه من "وُلْد الحسن أو الحسين"، فالاختلاف لا يخفى على ذوي العينين. وقد قال رسول الله ﷺ إن سلمان منا أهل البيت، مع أنه ما كان من أهل البيت، بل كان من الفارسيّين.

ثم اعلم أن أمر النسب والأقوام أمر لا يعلم حقيقته إلا علمُ العلام، والرؤيا التي كتبتُها في ذكر الزهراء تدل على كمال تعلُّقي، واللهُ أعلم بحقيقة الأشياء. وفي كتاب "التيسير" عن أبي هريرة: مَن أسلم من أهل فارس فهو قرشي. وأنا من الفارس كما أنبأني ربي، فتفكر في هذا ولا تعجل كالمتعصبين.

ثم الأصول المحكم والأصل الأعظم أن يُنظَر إلى العلامات ويُقدَّمَ البينات على الظنيات، فإن كنت ترجع إلى هذه الأصول فعليك أن تتدبّر بالنهج المعقول ليهديك الله إلى حق مبين، وهو أن النصوص القرآنية والحديثية قد اتفقت على أن الله ذا القدرة قسّم زمان هذه الأمة بحكمة منه ورحمة على ثلاثة أزمنة، وسلّمه العلماء كلهم من غير مِرْية. فالزمان الأوّل هو زمانٌ أوّلُ من القرون الثلاثة من بُدُوِّ زمان خير البرية، والزمان الثاني زمانُ حدوث البدعات إلى وقت

كثرة شيوع المحدثات، والزمان الثالث هو الذي شابهَ زمانَ خير البرية، ورجَع إلى منهاج النبوة، وتطهَّرَ من بدعات رديّة وروايات فاسدة، وضاهَى زمانَ خاتم النبيين، وسماه "آخرَ الزمان" نبيُّ الثقلين، لأنه آخر من الزمانَين. وحمد الله تعالى العباد "الآخرين" كما حمد "الأوّلين"، وقال: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾○، ولكلّ ثلّة إمام، وليس فيه كلام. فهذه إشارة إلى خاتم الأئمة، وهو المهدي الموعود اللاحق بالصحابة، كما قال ﷻ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ *، وسئل رسول الله ﷺ عن حقيقة "الآخرين" فوضع يده على كتف سلمان كالموالين المحبين، وقال: "لو كان الإيمان مُعلَّقًا بالثريّا" (أي ذاهبًا من الدنيا) "لناله رجل من فارس". وهذه إشارة لطيفة من خير البريّة إلى آخر الأئمّة، وإشارة إلى أن الإمام الذي يخرج في آخر الزمان ويردّ إلى الأرض أنوار الإيمان يكون من أبناء فارس بحكم الله الرحمن. فتفكّر وتدبّر، وهذا حديث لا يبلغ مقامَه حديث آخر، وقد ذكره البخاري في الصحيح بكمال التصريح. وإذا ثبت أن الإمام الآتي في آخر الزمان هو الفارسي لا غيره من نوع الإنسان، فما بقى لرجل آخر موضع قدم، وهذا من الله مليك وجودٍ وعدم، فلا تحاربوا الله ولا تجادلوا كالمعتدين، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين.

○ *الواقعة: ٤٠-٤١*

* *الجمعة: ٤*